﴿ باب عظيم من أبواب العقل والراحة ﴾

وهو اطراح المبالاة بكلام الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل بل هذا باب العقل كله والراحة كلها

من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون

من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق وان آلمتها في أول صدمة كان اغتباطه بذم الناس اياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم اياه لان مدحهم اياه ان كان بحق وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب فأفسد بذلك فضائله وان كان بباطل فبلغه فسره فقد صار مسروراً بالكذب وهذا نقص شديد وأما ذم الناس اياه فان كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سبباً الى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه الا ناقص وان كان بباطل وبلغه فصبر اكتسب فضلا زائداً بالحلم والصبر وكان مع ذلك غانماً لانه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل فيحظى بها في دار الجزاء أحوج ما يكون الى النجاة باعمال لم يتعب فيها ولا تكلفها وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه الا مجنون وأما ان لم يبلغه مدح الناس اياه فكلامهم وسكوتهم سواء وليس

كذلك ذمهم اياه لانه غانم للاجر على كل حال بلغه ذمهم أو لم يبلغه . ولولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الثناء الحسن « ذلك عاجل بشرى المؤمن » لوجب ان يرغب العاقل فى الذم بالباطل أكثر من رغبته فى المدح بالحق ولكن اذجاء هذا القول فانما تكون البشرى بالحق لا بالباطل فانما يجب البشري بما فى الممدوح لا بنفس المدح

ليس بين الفضائل والرذائل ولا بين الطاعات والمعاصي إلا نفار النفس وأنسها فقط فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات وليس هاهنا الا صنع الله تعالى وحفظه

طالب الآخرة ليفوز فى الآخرة متشبه بالملائكة وطالب الشر متشبه بالشياطين وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالبهائم وطالب المال لعين المال لا لينفقه فى الواجبات والنوافل المحمودة أسقط وأرذل من أن يكون له فى شئ من الحيوان شبه ولكنه يشبه الغدران التى فى الكهوف فى المواضع الوعرة لا ينتفع

بها شيء من الحيوان فالعاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد وانما يغتبط بتقدمه فى الفضيلة التى أبانه الله تعالى بها عن السباع والبهائم والجمادات وهي التمييز الذى يشارك فيه الملائكة . فمن سر بشجاعته التى يضعها فى غير موضعها لله عز وجل فليعلم ان النمر أجرأ منه وان الاسد والذئب والفيل أشجع منه ومن سر بقوة جسمه فليعلم ان البغل والثور والفيل اقوى منه جسما ومن سر بحمله الاثقال فليعلم ان الحمار أحمل منه ومن سر بسرعة عدوه فليعلم ان الكلب والارنب أسرع عدواً منه ومن سر بحسن صوته فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن صوتاً منه وان أصوات المزامير ألذ وأطرب من صوته فأي فخر وأي سرور فى ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه . لكن من قوى تميزه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك فانه لا يتقدمه فى هذه الوجوه الا الملائكة وخيار الناس

قول الله تعالى « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » جامع لكل فضيلة لان نهي النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضبي وعن الطبع

الشهواني لان كليهما واقع تحت موجب الهوى فلم يبق الا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها الذي به بانت عن البهائم والحشرات والسباع

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للذى استوصاه «لا تغضب» وأمره عليه السلام ان يحب المرء لغيره مايحب لنفسه جامعان لكل فضيلة لان فى نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها وفى أمره عليه السلام ان يحب المرء لغيره مايحب لنفسه ردع النفس عن القوة الشهوانية وجمع لأزمة العدل الذى هو فائدة النطق الموضوع في النفس الناطقة

رأيت اكثر الناس إلا من عصم الله تعالى وقليل ماهم يتعجلون الشقاء والهم والتعب لانفسهم في الدنيا ويحتقبون عظيم الاثم الموجب للنار فى الآخرة بالا يحظون معه بنفع اصلا من نيات خبيثة يَضبُّون[1] عليها من تمني الغلاء المهلك للناس وللصغار ومن لا ذنب له وتمني أشد البلاء لمن يكره هونه وقد علموا يقيناً أن تلك النيات الفاسدة لا تعجل لهم شيئاً مما

(١) ضبَّ على الشيء وأضب احتواه ولزمه فلم يفارقه اه لسان العرب

يتمنّونه أو يوجب كونه وانهم لو صفّوا نياتهم وحسنوها لتعجلوا الراحة لانفسهم وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم ولاقتنوا بذلك عظيم الاجر فى المعاد من غير ان يؤخر ذلك شيئاً مما يريدونه أو يمنع كونه فأي غبن أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها وأي سعد أعظم من التي دعونا اليها

اذا حققت مدة الدنيا لم تجدها الا الآن الذى هو فصل الزمانين فقط . وأما ما مضى وما لم يأت فمعدومان كما لم يكن فمن أضل ممن يبيع باقياً خالداً بمدة هي أقل من كرّ الطرف

اذا نام المرء خرج عن الدنيا ونسي كل سرور وكل حزن فلو رتب نفسه في يقظته على ذلك أيضاً لسعد السعادة التامة

من أساء الى أهله وجيرانه فهو أسقطهم . ومن كافأ من أساء اليه منهم فهو مثلهم . ومن لم يكافئهم بإساءتهم فهو سيدهم وخيرهم وأفضلهم

﴿فصل فى العلم﴾

لو لم يكن من فضل العلم الا أن الجهال يهابونك